وثائقي

بين النظام والجماعات الإسلامية المسلحة، يقبع الشعب السوري. هذا هو «البلد الرهيب» الذي شاهدنا عرضه الأول في بيروت الأسبوع الماضي. يتتبع شريط زياد حمصي ومحمد علي الأتاسي رحلة الكاتب المعارض ياسين الحاج صالح من دوما إلى الرقة... وصولاً إلى المنفى المؤقت في تركيا

«البلد الرهيب»... عن رحلة التيه السورية

عبدالرحمن جاسم

بعد مشاهدة العرض الأول لوثائقي «بلدنا الرهيب» الذي أقامته مؤسستا «بدايات» للفنون البصرية و«هنريش بول» الألمانية في «متروبوليس أمبير صوفيل» أخيراً، سنفهم أنّ الشريط خالٍ من أي بروباغندا للثورة السورية، ومن الشتائم المستهلكة لعائلة الأسد على السواء. لا حاجة لكل ذلك. الفيلم (حائز الجائزة الكبرى في «مهرجان مرسيليا الدولي» 2014) الذي أخرجه زياد حمصي ومحمد علي الأتاسي هو تأريخٌ لرحلة الكاتب المعارض ياسين الحاج صالح، من دمشق وصولاً إلى منفاه الاختياري والقسري في إسطنبول (أكتوبر 2013). لم يخب ظن الحاضرين الذين أتوا لمشاهدة دمار البلد «الجميل» الذي عرّاه الشريط إلى حدٍّ كبير. نشاهد الدمار الذي خلّفه النظام السوري على الأبنية والمدن، فيما تُظهر المشاهد الأولى ياسين الحاج صالح مع زوجته سميرة والناشطة رزان زيتونة (كلتاهما معتقلتان اليوم لدى جهة إسلامية مجهولة ولا يعرف عنهما شيء) يساعدون في تنظيف شارع ضمن حملةٍ شعبية ينظمها المتطوّعون التابعون للجيش الحر. اللافت هو سيطرة الإسلاميين شبه التامة على المشاهد، وعلى الشارع. يظهر رجلٌ من «المجاهدين» من سكان منطقة دوما (حيث الجزء الأول من الفيلم/ الرحلة)، فيتحدّث عن أن الحجاب أمر طبيعي. يبدو الجيش الحر «بعلمانيته» المفترضة مختلفةً عنها في الواقع المعيش. ليس هناك إلا إسلاميون (هناك بيان يتلى وتستعمل فيه كل التعابير الإسلامية بخلاف بيانات الأحزاب العلمانية مثلاً). يقرر الحاج صالح مع المصوّرين زياد حمصي وسعيد البطل وآخرين لا نشاهدهم إلا قليلاً، أن يسافروا في رحلةٍ إلى مدينة الرقّة، مسقط رأس صالح التي يسيطر عليها «داعش» حالياً.

ياسين الحاج صالح في الشريط

الطريق شاقة ومتعبة. الأرض السورية الصحراوية القاحلة كانت تؤثر في الرحلة. لكن كل ذلك لم نشاهد منه الكثير، فكانت الكاميرا خفيفةً بعض الشيء في تلك المرحلة، ربما بسبب خطورة التصوير في كل مكان، أو لصعوبة تقبّل الأشخاص لفكرة الكاميرا المصوّبة عليهم. يصل الزوار إلى الرقة بعد عناء شديد، ونكون قد عرفنا بأنّ شقيقي ياسين قد اعتقلتهما «الدولة الإسلامية» التي لا يزال الحاج صالح يفكره الشيوعي، «يكفّرها» ويعاديها. هكذا، ينتقدها ويطلق عبارات تسخر منها، مشيراً إلى أنّه يتمنى زوالها. وإذ إن زيارته لمدينته، باتت «سرية»، فلأن هؤلاء القتلة الغرباء يحكمونها. ياسين يسر لاحقاً لصحافية تقابله في تركيا بأنّه لن يعود إلى سوريا حالياً، رغم إلحاحها على أن تأثيره في الداخل سيكون أكبر منه في الخارج، وبالتحديد في مناطق سيطرة المعارضة المسلّحة. يجيبها بهدوءٍ ميزه خلال الفيلم بأكمله: «إنهم يقتلون أمثالي، فضلاً عن أننا لا نمتلك «العضلات» للدفاع عن أفكارنا ومعتقداتنا حالياً»؛ في إشارة واضحة إلى عدم وجود أي فصيل «علماني» مسلّح يحمل شارة «الثورة». يمكث الحاج صالح أشهراً في الرقة، حتى يتسنّى له الولوج إلى تركيا ومنها إلى إسطنبول. كان ملاحظاً أنه خلال تلك الرحلة، لم نشاهد أي محاولة لتصوير الحواجز أو التحصينات التي تقيمها جهات مسلحة من المعارضة السورية. حتى إننا لم نشهد تصويراً في الرقّة باستثناء مرة واحدة من داخل سيارةٍ مغلقة من دون الإشارة إلى «داعش» التي أشير إليها كثيراً في المقابل من خلال الأحاديث كسارقة للثورة، خصوصاً حين تحدث زياد حمصي في الجزء الأخير من الفيلم.

تقنياً، يبدو الفيلم وثائقياً خالياً من المهارات التي يمتاز بها هذا النوع. تركت الكاميرا على سجيتها والأشخاص أيضاً. قدّم المخرجان تلك المشاهد كما هي تحت منطق «هذه هي سوريا، هذا هو بلدنا الرهيب». في الشريط، تبدو الأبنية المدمّرة شاهداً على ما حدث لكن في الوقت عينه، لمن يعرف قليلاً عن الأفلام تبدو بعض المشاهد «دراميةً» أو مفتعلةً بعض الشيء. هكذا بدا المشهد في بداية الفيلم فوضوياً وغير مفهوم: إطلاق نار في الشارع، في عملية قضاءٍ على قناص، وبعدها بيانٌ رسمي للجيش الحر. بدا الأمر فعلياً كما لو أنّه إعلانٌ شبيه لذلك الذي كانت تقدمه قناة «أل بي سي» اللبنانية لفرقة «الصدم» في القوات اللبنانية إبان حرب الإلغاء. على المقلب الآخر، وحده ياسين الحاج صالح كان الميزان. لم يكن الرجل الذي قضى 16 عاماً في السجن قابلاً للكسر في جميع مشاهده. كان مبتسماً واثقاً بنفسه، وصلباً إلى حدٍّ كبير، حتى في كلماته كان يستعمل أعلى مستوى للغة، يمكن استخدامه في وصف ما يحدث بكل دقّة. حتى في لحظات «ضعفه» و«سكونه»، كان يصر على البقاء كما هو، «صلباً» متماسكاً. لا يمكن أي مشاهدٍ للفيلم، ألا يلاحظ أن الرجل ليس من دعاة الدمار والقتل والتخريب. هو مع أي محاولة للإصلاح والتحسين، وتكفي كلماته في تركيا حين يقول: أنا لربما لن أكتب في الصحف ولن أكتب السياسة، بل إنني سأستعمل حرفتي لأكتب في الفن والثقافة والأدب، هذا أفضل بالتأكيد.

تيسير السعدي
عمر مثقل بالآلام

خليل صويلح

لم ينل تيسير السعدي (1917- 2014) ما يستحقه من تكريم، فقد كان بعيداً من الهتاف والشللية والأضواء. مات وحيداً، ليطوي برحيله، ذاكرة موازية لتاريخ الفن السوري منذ بداياته إلى اليوم. هكذا ذهب بكامل طاقته وحواسه وشغفه إلى مهنة «المشخصاتي»، غير عابئ لاحتجاجات محيطه، هو الذي ينتسب إلى عائلة تنتمي إلى إحدى الطرق الصوفية. لعل الأب الذي كان يعمل فرّاناً، أراد مصيراً آخر لابنه، فأرسله إلى مدرسة «اللاييك» ليتعلّم. حضوره عرضاً لفرقة الـ «كوميدي فرانسيز» التي زارت دمشق في ثلاثينات القرن المنصرم، أدار حياته رأساً على عقب. هنا اكتشف معنى المسرح الحقيقي، ففي كواليس هذه الفرقة التي عمل كومبارساً في عروضها الدمشقية، تعلّم تقاليد أخرى للخشبة، لا تشبه ما كان يشاهده في عروض خيال الظل، أو «كركوز وعيواظ»، أو عروض الحكواتي، وحتى الأفلام التي كان يشاهدها في سينما «الكوزموغراف». قرّر بإصرار الذهاب إلى القاهرة لدراسة التمثيل، ليكون أول طالب سوري في معهد السينما، إلى جانب فريد شوقي وفاتن حمامة، وشكري سرحان، وسميحة أيوب. لكنّ إفلاسه بعد فترة قصيرة من إقامته، اضطره لمغادرة المعهد للدراسة في معهد خاص يسمح له بالعمل أثناء الدراسة. كان أن عمل في كازينو بديعة مصابني، كما منحته آسيا داغر التي كانت تدير شركة للإنتاج تدعى «لوتس فيلم»، دوراً صغيراً في أحد أفلامها، مقابل نصف جنيه عن الدور، قبل أن يختاره هنري بركات عام 1946 لبطولة فيلم «الهانم» أمام فاتن حمامة. لم يطل به المقام في القاهرة، فعاد إلى دمشق ليؤسس «فرقة التمثيل والموسيقى» بمفهوم جديد للمسرح. على أن المنعطف الأساسي في حياته، أتى على يد حكمت محسن، أبرع القصاصين الشعبيين في تاريخ الدراما السورية. عملا معاً على خشبة المسرح، قبل أن يؤسسا طرازاً مختلفاً للتمثيلية الإذاعية التي تنهض على نكهة شامية حارّة، ستبقى كنزاً ثميناً في أرشيف إذاعة دمشق. اشتهر تيسير السعدي بتمثيلية «صابر وصبرية» مع شريكة حياته صبا المحمودي، وهو بهذا ينتمي إلى زمن الراديو أكثر من انتمائه إلى زمن الصورة. ذلك أنّ إطلالاته التلفزيونية والسينمائية، كانت نادرة. لعل السعدي كان ضحية مناخ عشوائي، لا دور حيوياً، لفنان مثقف مثله، في مهنة تسمح بتفوّق الدخلاء وأذكياء العلاقات العامة، فانكفأ إلى عزلة طويلة، ببصرٍ شحيح وذاكرة متوقّدة، وشجن على عمر مثقل بالآلام، هو الذي ولد في الحرب العالمية الأولى، ورحل في حربٍ أخرى ما زالت مشتعلة.

> طوى برحيله ذاكرة موازية لتاريخ الفن السوري

zoom

«مدن الخوف» أو الوجه الآخر للثورة الليبية

عماد استيتو

ليس المشهد الليبي الحالي المليء بالتشظيات والتطاحنات الداخلية إلا امتداداً لمخلّفات «ثورة فبراير» ضد نظام القذافي، وفشل الفرقاء السياسيون في تحقيق المصالحة الوطنية وطي خلافات الماضي. صارت المدن الليبية التي كانت تدعم نظام القذافي، منكوبة ومحترقة عوملت من قبل الثوار كـ «غنائم» تؤخذ بمنطق الانتقام. لذلك اختار المخرج الليبي الشاب عاطف الأطرش تسليط الضوء على الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والإنساني لهذه المدن التي أيدت القذافي ودفعت الثمن بطريقة مهينة.

اختار الأطرش لشريطه الوثائقي (52 د) عنوان «مدن الخوف» المقتبس عن ديوان للمحامي والشاعر الليبي عبد السلام المسماري المغتال بعد الثورة وقد كان صديقاً عزيزاً لعاطف. يعالج الفيلم الذي عرض أخيراً في «مهرجان أيام بنغازي الثقافية» موضوعاً يكاد يكون «تابوه» في ليبيا ما بعد القذافي خوفاً من الوقوع في دائرة الاتهام بمعاداة الثورة. على عكس الأفلام الوثائقية التي غزت ليبيا بعد إسقاط القذافي، لم يتغن شريط عاطف الأطرش وأصدقائه بـ «ثورة 17 فبراير» بل ركز على الجانب المظلم لهاته الثورة من خلال الأضرار التي لحقت بالبنية التحتية والتهجير والترحيل وتجذّر الخوف في المدن والقرى التي دفعت الظروف أبناءها للوقوف إلى جانب القذافي مثل: بني وليد، سرت، تاورغاء.

يقول الأطرش أحد المشاركين في الثورة الذي اعتقل في أولى أيامها وقضى جميع أيامها في السجن إلى أن سقطت طرابلس، إن القائمين على العمل اشتغلوا بإمكانياتهم الذاتية وباستقلالية تامة عن أي جهة. ويتابع «اخترنا أن نناقش وضعية المدن التي وقفت مع القذافي خلال الثورة.

نظام القذافي كان ديكتاتورياً للأسف، إلا أنه ظهرت طغمة أشد ديكتاتورية منه، ما أدّى إلى تأزيم الوضع ووصول الأمور إلى النقطة التي وصلت إليها اليوم. كلنا مواطنون ليبيون متساوون في الحقوق والواجبات رغم اختلاف انتماءاتنا، وهذا ما خرجنا لأجله في الثورة، لكن ما يحصل هو العكس تماماً».

من خلال فيلمه الذي استعمل فيه شهادات حية ولقطات من أرشيف الثورة، حاول الأطرش إيصال رسالة إلى الليبيين مضمونها أنّ ليبيا مهددة بالضياع في حال استمر هذا الصراع الشرس بين المدن وتفضيل مناطق على أخرى.

> وثائقي يرصد حال المدن الداعمة للقذافي

يقول الأطرش في حديثه لـ«الأخبار»: «هذا الفيلم تناول الجانب الإنساني للحرب. حاولنا استدرار العاطفة الإنسانية نحو خصوم الثورة، فهم أولاً وأخيراً ليبيون مثلنا، ولا نرضى أن نتجاوز في المظالم. من أجرم يحاكم والبريء لا يتم ظلمه بهذا الشكل».

واجه الأطرش، المخرج والمنتج في آن وفريق عمله الكثير من العراقيل والمصاعب خلال التصوير والإعداد لهذا الوثائقي بسبب تخوف الناس من الحديث عن تجاربهم القاسية خشية التعرض للانتقام من قبل الميليشيات المسلحة المنتشرة في المدن الليبية. كما لم يسلم العمل من الانتقادات من المحسوبين على الثورة الذين اتهموا القائمين عليه بأنهم من مناصري القذافي. لكن عاطف الأطرش عازم على دق ناقوس الخطر حتى لا يعاد استنساخ التجربة القذافية وتضاف مدن أخرى لدائرة الخوف. يقول: «لا يمكن أن أكون مناصراً للثورة وأمارس ما كان يمارسه القذافي وبشكل أقبح وأبشع».